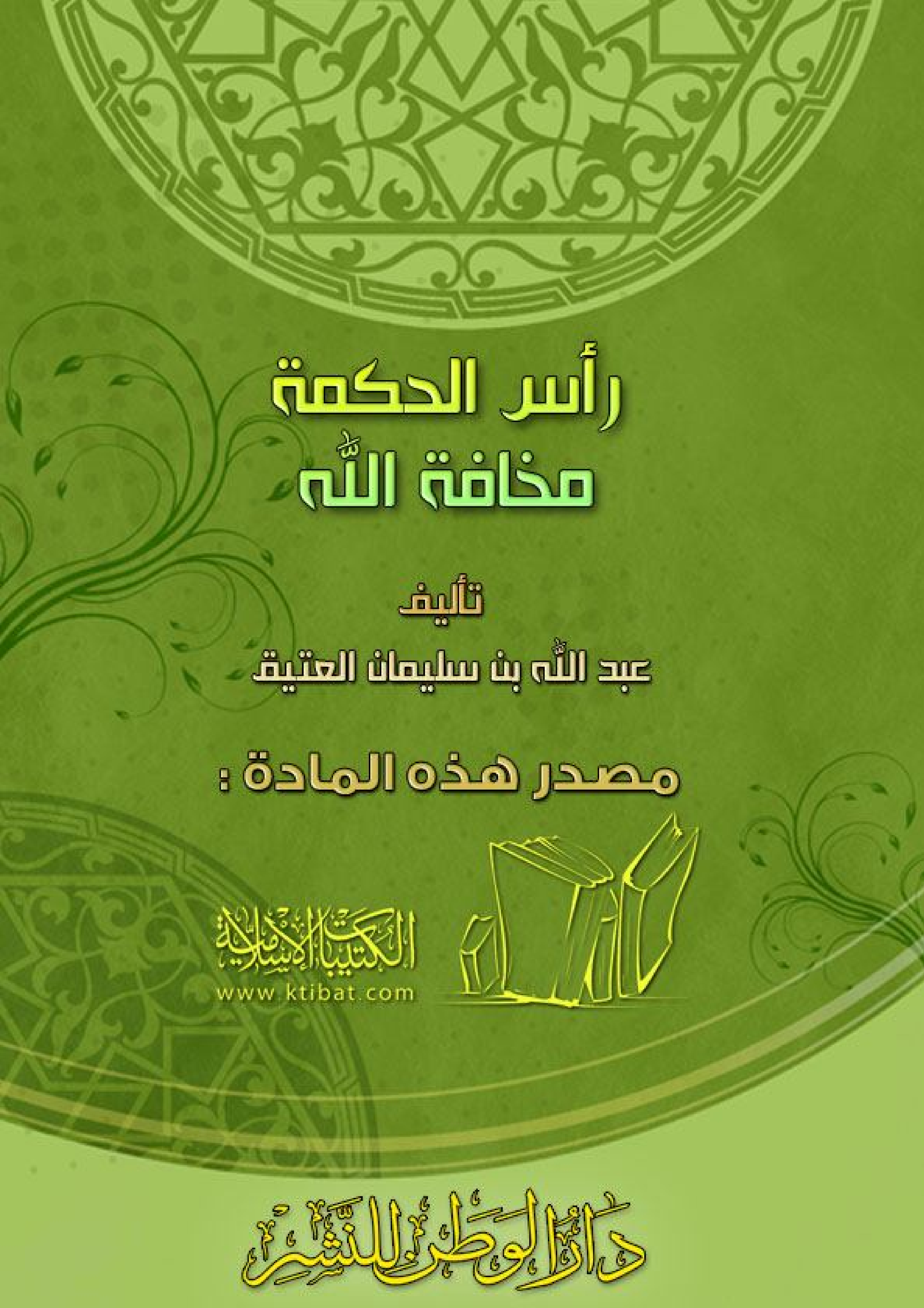

رأس الحكمة
مخافة الله
تأليف
عبد الله بن سليمان العتيق
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

«رأس الحكمة مخافة الله»

[رواه البيهقي]

قال أبو محمد الجريري (ت:٣١١هـ)

«الرجاء طريـــق الزهـــاد،
والخوف سلوك الأبطـــال»

مقدمة

حمداً لك اللهم يوافي نعمك ويكافئ مزيدك، وصلاة وســـلاماً دائمين تامين على صفوة عبيدك، سيدنا وحبيبنا محمـــد الخـــائف الوجل، المعصوم من الزلل والخلل، وعلى آله الطيبين، وأصـــحابه الطاهرين، ومن سار على دربهم إلى يوم اللقاء.

أما بعد:

(فالقلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحـــان فهـــو عرضة لكل صائد وكاسر)[1].

فـــ(الخوف من الله) من أسمى منازل الراغب في الوصـــول إلى الله –تعالى– لأنه يحجبه عن الوقوع في المنهي عنـــه، ويدفعـــه إلى الإتيان بالمأمور على وجه كامل تام.

ولأجل ذا كله اهتم العلماء وأهل السلوك بتقـــنين أحكامـــه، ورسم معالمه، وإيضاح أحوال سالكيه، حتى يكون بينا لمن رغـــب التخلق به، ورام الاتصاف بحقيقته.

وهذا الجمع لمتفرقات الكلام فيه خطوة مباركة ضمن خطوات موصلات إلى الغاية التي يطمح إليها كل مسلم مؤمن.

---

(١) (مدارج السالكين) (٢/١٤٥).

رزقنا الله الخوف منه مع الفقه فيه، وأبلغنا مرضاته وعفوه.

***

تعريف الخوف

عرفه ابن فارس في: (مقاييس اللغة)[١] فقال: "الخـــاء والـــواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع". أ.هـــ.

وأما في اصطلاح أهل التربية فقد كثرت تعاريفهم له، وهـــذا شيء منها:

- توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.
- اضطراب القلب وحركة من تذكر المخوف.
- هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره[٢].

وقال الجرجاني– رحمه الله- : توقع حلول مكروه، أو فـــوات محبوب[٣].

وقال الإمام الغزالي– رحمه الله- : الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال[٤].

---

(١) ص: (٣١٧).
(٢) انظر: (مدارج السالكين) (١٣٧/٢).
(٣) التعريفات ص (٨٧).
(٤) إحياء علوم الدين (١٩/٤).

فهذه التعاريف تدور حول معنى واحد، فليس بينها تفاوت في المعنى، وإن اختلفت ألفاظ فيها.

وحقيقة الخوف أبان عنها أبو حامد الغزالي– يرحمه الله– حيث قال [1]: (حال الخوف ينتظم من علم وحال وعمل، أمـــا العلـــم، فهو: العلم بالسبب المفضي إلى المكروه، فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحـــراق هـــو الخوف).

فالخوف من الله تعالى:

١– تارة يكون لمعرفة الله ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبالِ و لم يمنعه مانع.

٢– وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي.

٣– وتارة يكون بهما جميعاً.

وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفتـــه بجـــلال الله تعـــالى واستغنائه، وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فتكـــون قـــوة خوفه، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قـــال ﷺ: «**أنا أخوفكم لله**»[2]، وكذلك قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـــهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[فاطر:٢٨] ثم ذكر الحال والعمل وسيأتي ذلك إن شاء الله.

(١) السابق(١٩١/٤).
(٢) رواه البخاري(٥٠٦٣).

فضل الخوف

لمعرفة فضل الخوف طريقان:

الأولى: الآيات والأخبار، والوارد منها خارج عـــن الحصـــر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمـــة والعلم والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان.

فمن الآيات: قول الله تعالى: ﴿**وَلِمَـــنْ خَـــافَ مَقَـــامَ رَبِّـــهِ جَنَّتَانِ**﴾[الرحمن:٤٦].

وقوله تبارك وتقدس: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾.

وقوله جل جلاله: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَـــنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾[البينة:٨].

وجاء في الحديث عن سيدنا رسول الله ﷺ أنـــه قـــال: «**رأس الحكمة مخافة الله**»[1].

وقال ﷺ: «**من خاف الله تعالى خافه كل شيء، ومن خـــاف غير الله خوفه الله من كل شيء**» [2].

والأحاديث في ذلك كثيرة، ويكفي ما ذكر – رزقنا الله حسن الخوف منه– .

وكما جاءت نصوص من الكتاب والسنة كذلك أتت أخبـــار

(١) رواه البيهقي في (الشعب) وضعفه.
(٢) رواه ابن حيان في كتاب (الثواب).

عن سادات الصالحين، وأئمة العباد، فيها إشـــارات وإضـــاءات، وركائز ومعالم في: (عبادة الخوف) فمن ذلك:

قول الفضيل رحمه الله: (من خاف الله، دله الخوف على كـــل خير).

وقول أبي الحسين الضرير– رحمه الله– : علامـــة الســـعادة خوف الشقاوة، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده، فـــإن انقطع زمامه هلك مع الهالكين.

ومن لطيف فضائله قول مالك بن دينار– رحمه الله– : الحزن تلقيح العمل الصالح.

وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: أفضل البكاء: بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة، أو بكاء على ما سبق لـــه من المخالفة.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: الهوى يُردي، وخـــوف الله يشفي، واعلم أنما يزيل عن قلبك هواك إذا خفت من تعلـــم أنـــه يراك.

وقال شقيق البلخي رحمه الله: ليس للعبد صاحب خيرٌ من الهم والخوف، هَمٌّ فيما مضى من ذنوبه، وخوف فيما لا يدري ما ينزل به.

هذا غيض من فيض أقوال السادة العابدين، والنخبة السالكين عن الخوف من الله، وبها يتم ذكر الطريق الأولى لفضيلة الخوف من الله.

وأما الطريق الثانية: فبالتأمل والاعتبار، قال الإمام الغـــزالي– رحمه الله – في (إحياء علوم الدين)[(١)] أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الافضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة، إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقـــاء مـــولاه والقرب منه، فكل ما أعان فله فضله، وفضيلته بقدر غايته.

وقد ظهر أنه لا وصول إلى ســـعادة لقـــاء الله في الآخـــرة إلا بتحصيل محبته، والأنس به في الدنيا، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطـــع ذلـــك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشـــهيات إلا بقمـــع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنـــار الخـــوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق مـــن الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث علـــى الطاعـــات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق[(٢)].

وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل: العفة، والورع، والتقوى، والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة الـــتي تقـــرب إلى الله زلفى. أ.هـــ.

فهاتان طريقتان بهما تتضح فضيلة الخوف من الله تعالى، نفـــع الله بهما.

---

(١) ص (١٩٧/٤).

(٢) ذكر رحمه الله في (الإحياء) (١٩٢/٤- ١٩٦) درجات الخوف والخائفين، وسيذكر ذلك بعد هذا المبحث بتوفيق الله وإذنه.

القدر المطلوب من الخوف

قال الإمام الغزالي– رحمه الله– في: (إحياء علوم الــــدين)[(١)]: اعلم أن الخوف محمود، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمـــود، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد، وهو غلط، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.أ.هـــ.

فالخوف من الله له قدر إن زاد عليه أو نقص عنه كان مضرا، فلا إفراط فيه ولا تفريط، يقرر هذه الحقيقة ابن رجب– رحمه الله– في: (التخويف من النار) حيث يقول [(٢)]: والقدر الواجــــب مـــن الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد علــــى ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير في نوافـــل الطاعـــات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحـــات، كان ذلك فضلا محمودا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضا أو موتا أو هما لازما بحيث يقطع عن السعي في اكتســـاب الفضـــائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل يكن ذلك محموداً. أ.هـــ [(٣)].

فرعاية ذلك مطلب مهم جدا في تحصيل هذه العبادة الشريفة، إذ الاعتدال مطلوب، والتوازن مرغوب.

---

(١) ص (١٩٢/٤).

(٢) ص (٢٨).

(٣) وذكر رحمه الله كلاما نفيسا عن بعض السلف وخوفهم، وأوضح بأفصح معنى عن أحوالهم في الخوف، والاعتذار لهم، وبيان ذلك، فرحمه الله ورضي الله عنه.

***

درجات الخوف

تختلف درجات الخوف لدى الخائفين باختلاف ما لديهم مـــن العلم والمعرفة، فمن زاد علمه بالله تعالى وقدرته وصفاته، زاد خوفه من الله، ودق خوفه منه سبحانه، وقس على ذلك قلة العلم.

وعلى ذلك، فالخوف ثلاثة درجات:

الدرجة الأولى: الخوف من العقوبة، وهو: خوف العباد مـــن حلول عقوبة الله تعالى بهم، وهذا الخوف مسبوق بالشعور والعلم، (فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به، وله متعلقان:

أحدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه.

الثاني:السبب والطريق المفضي إليه، فعلى قدر شعوره بإفضـــاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف: يكون خوفه، وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه...)[1].

وهذا الخوف يتولد من أشياء ثلاثة مبنية على ما سبق، وهي:

الأول: تصديق الوعيد، فملاحظة العبد الوعيد بالتصديق بـــه والإيمان بوقوعه وحصوله على المتوعد به من المخالفين مولد فيـــه الخوف من مقارفة النهي، ومخالفة الأمر.

---

(١) (مدارج السالكين) (١٤١/٢).

الثاني: ذكر الجناية، والمقصود: معرفة العبد بجنايته، وما أحدثه من ذنب في جنب الله تعالى، فإذا قام في قلبه قائم العلم بأنه قد جنى ذنباً، وارتكب خطيئة، خالف فيها أمر الله تعالى، وما وقف عنـــد نهيه، مع علمه بالعقوبة المتوعد بها صاحب الجناية، انبعث في قلبـــه الخوف من حلول تلك العقوبة عليه.ص١٩

وأما إذا عمى قلبه، وكابر في نفسه، فأنكر أنه أتـــى جنايـــة خالف فيها أمرا ونهيا، فلا ينبعث فيه الخوف ولا يأتي منـــه علـــى ذكر، إذ غاب عن قلبه قائم الوعظ والعلم بجنايات النفس.

الثالث: مراقبة العاقبة، أي: الخاتمة، حيث قيام مراقبة العاقبة في القلب يورث فيه الخوف من العقوبة والذنب، والعاقبة هنـــا لهـــا احتمالان:

الأول: الأثر الناتج من العقوبة إثر الذنب والجناية.

الثاني: الختم للمرء في حياته عند موته.

فمراقبة هذين يورث في القلب خوفاً ينتج زيادة في الطاعات، وتركا للمعاصي والسيئات.

قال ابن القيم – رحمه الله– [1] وفي مراقبـــة العاقبـــة: زيـــادة استحضار المخوف، وجعله نصب عينيه، بحيث لا ينساه، فإنـــه – وإن كان عالما به – لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلـــب وبين الخوف) أهـــ.

---

(١) مدارج السالكين (١٤٢/٢).

الدرجة الثانية:الخوف من المكر، وأوضح ذلك ابن القـــيم – رحمه الله– حيث قال: يريد – أي: الهروي – صاحب (منـــازل السائرين) – : أن من حصلت له اليقظة بلا غفلـــة، واســـتغرقت أنفاسه فيها: استحلى ذلك، فإنه لا أحلى من الحضور في اليقظـــة، فإنه ينبغي أن يخاف المكر، وأن يسلب هـــذا الحضـــور، واليقظـــة والحلاوة.

فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال، ورجع من حســـن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال، بينما بدر أحواله مستنيراً في ليـــالي التمـــام، إذ أصـــابه الكسوف فدخل في الظلام، فبدل بالأنس وحشة، وبالحضور غيبة، وبالإقبال إعراضا، وبالتقريب إبعاداً، وبالجمع تفرقة، كما قيل:

أحسنت ظنك بالأيام، إذ حســـنت
ولم تخف سوء ما يـــأتي بـــه القـــدر
وسالمتك الليـــالي، فـــاغتررت بهـــا
وعند صفو الليالي يحـــدث الكـــدرُ

أ.هـــ.

وهذه الدرجة هي التي قطعت قلوب الصـــالحين، وأقضـــت مضاجعهم، فهذا سيدنا رسول الله ﷺ يقـــول: «**شـــيبتني هـــود وأخواتها ســـورة الواقعـــة، وإذا الشـــمس كـــورت، وعـــمّ يتسألون**»[1]، فقد قال العلماء: لعل ذلك لما في سورة هـــود مـــن

(١) رواه البخاري وحسنه، وصححه الحاكم.

الإبعاد[١].

وهذا الخوف (لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله، ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصـــدر منـــها بالمكر، وما لأحد الوقوف على كنه صفات الله تعالى، ومن عرف حقيقة المعرفة، وقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة)[٢]

وتظهر حقيقة هذه المعرفة الصادر عنها ذلك الخوف في قصـــة سيدنا رسول الله ﷺ يوم بدر حيث قال عليه الصـــلاة والســـلام: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجـــه الأرض أحـــد يعبدك**»[٣]، فيقول له أبو بكر – رضي الله عنه – دعْ مناشـــدتك ربك فإن الله وافٍ لك بما وعدك.

قال الغزالي –رحمه الله– مبينا ذلـــك – في (إحيـــاء علـــوم الدين)[٤]: فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعـــد الله، وكان مقام رسول الله ﷺ مقام الخوف مـــن مكـــر الله وهـــو أتم .أ.هـــ.

وورود هذا الخوف على قلوب العارفين إنمـــا هـــو لارتبـــاط أمورهم وأحوالهم بمشيئة الله، الذي لا يبالي – سبحانه – بـــإهلاك

---

(١) (إحياء علوم الدين) (٤/٢٠٩).
(٢) (إحياء علوم الدين) (٤/٢١٠).
(٣) رواه البخاري (٣٩٥٣).
(٤) ص (٤/٢١٠).

أحد إن أهلكه، (فكيف لا يخاف ما حق من القـــول في الأزل، ولا يطمع تداركه، ولو كان الأمر آنفاً لكانت الأطماع تمتد إلى حيلـــة فيه، ولكن ليس إلا التسليم فيه، واستقراء خفي السابقة من جلـــي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح ...، وكيف يـــؤمن تغـــير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، وأن القلب أشد تقلباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب عز وجـــل: ﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ**﴾[المعارج:٢٨].

فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن)[١]

روى الشيخان [٢] عن السيدة عائشة رضي عنها، أن رســـول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة، يتغير وجهه، فيقوم ويتردد في الحجرة، ويدخل ويخرج، كل ذلك خوفاً من عذاب الله.

قال الحسن البصري – رضي الله عنه ورحمه – : إن المـــؤمن يصبح حزيناً ويمسي حزيناً، ولا يسعه غير ذلك، لأنه بين مخـــافتين: بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك.

ولما حضرت سفيان الثوري –رحمه الله– الوفاة بكى، فقال له رجل: أراك كثير الذنوب؟ فرفع شيئاً مـــن الأرض، فقـــال: والله لذنوبي أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبـــل أن أموت.

---

(١) (إحياء علوم الدين) (٢/٤١٠- ٤١١).

(٢) البخاري (٣٢٠٦) ومسلم (٨٩٩).

وكان عبدالله بن المبارك –رحمه الله– : يتقلب على فراشه من الغم، ويقول: من يصبر على أخذ الله، إن أخذه أليم شديد.

هذه شذرة من أخبار القوم في الخوف من المكر، وكيـــف لا يخـــافون ذلـــك إذ ﴿**فَلَـــا يَـــأْمَنُ مَكْـــرَ اللَّـــهِ إِلَّـــا الْقَـــوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[الأعراف:٩٩].

الدرجة الثالثة: هيبة الجلال، إذ إن أهل هذه الدرجة هم الذين وصلوا إلى الله، وقربوا منه، فالله معهم بإقباله عليهم، فليس ما هـــم فيه وحشة الخوف، لأن وحشة الخوف تكون مع الإنقطاع عن الله والإساءة في المعاملة له سبحانه.

قال ابن القيم – رحمه الله – : وكلما كان عبده بـــه أعـــرف وإليه أقرب، كانت هيبته وإجلاله في قلبه أعظم[(١)].

وباعث هذا الخوف هو تمام العلم بذات الرب وصفاته، فـــإن ذلك يورث رعشة في القلب، وحزنا دائما، ووجدا في الـــنفس، إذ تلك المعرفة والعلم تورثان الهيبة من الله تعالى، وعظم الإجلال لـــه سبحانه، والخوف من ترك الأدب معه في الخلوة به ومناجاته، ولذا قال الهروي – رحمـــه الله – في: (منـــازل الســـائرين (١٤٣/٢) (مدارج السالكين): وهي هيبة تعارض المكاشف أوقات المناجـــاة، وتصون المسامر أحيان المسامرة، وتفصم المعاين بصـــدق العـــزة. أ.هـــ.

(١) (مدارج السالكين) (١٤٣/٢) وأشار إلى أن هذا الخوف أعلى من خوف العامة– وهو الدرجة الأولى، وأنه خوف أهل الخصوص.

قال ابن القيم – رحمه الله – شارحاً ذلك: يعني: أن أكثر ما تكون الهيئة أوقات المناجاة، وهو وقت تملّق العبد ربه، وتضرعه بين يديه، واستعطافه، والثناء بآلائه وأسمائـــه وأوصـــافه، أو مناجاتـــه بكلامه، هذا هو مراد القوم بالمناجاة.

وهذه المناجاة توجب كشف الغطاء بين القلب وبين الـــرب، ورفع الحجاب المانع من مكافحة القلب لأنوار أسمائـــه وصـــفاته، وتجليها عليه، فتعارض (الهيبة) في خلال هذه الأوقات، فيفيض من عنان مناجاته بحسب قوة واردها.

وأما (صون المسامر أحيان المسامرة): فالمسامرة عندهم أخص من المناجاة، وهي: مخاطبة القلب للرب خطاب المحب لمحبوبـــه [1]، فإن لم يقارنها هيبة جلاله أخذت به في الانبساط والإدلال، فتجيء (الهيبة) صائنة للمسامر في مسامرته عن انخلاعه من أدب العبودية.

وأما فصمها المعاين بصدمة العزة: فإن (الفصم) هو: القطـــع، أي: تكاد تقتله وتمحق بصدمة عزة الربوبية بمعانيها الثلاثة، وهـــي: عزة الامتناع، وعزة القوة والشدة، وعزة السلطان والقهـــر، فـــإذا صدمت المعاين كادت تفصمه وتمحق أثره، إذ لا يقوم لعزة الربوبية شيء، والله أعلم.اهـــ [2].

هذه درجات الخوف الثلاث أتينا عليها بإيضاح وبيان، نسال

---

(١) قال السيد الجرجاني – رحمه الله – في: (التعريفات) (ص١٦٩): (المسامرة) خطاب الحق للعارفين وكان منه لهم من عالم الأسرار والغيوب. أ.هـــ.

(٢) (مدارج السالكين) (٢/١٤٣– ١٤٥).

الله توفيقاً لسلوكها والاتصاف بها.

طبقات الخائفين

إن اختلاف درجات الخوف، وتعددها أحدث ذلـــك تنـــوع الخائفين، واختلاف أحوالهم، إلا أن الخائفين يجمل تقســـيمهم في طبقتين:

الأولى: طبقة العارفين، وهم الذين غلب عليهم الخـــوف ممـــا يجلب لهم الإبعاد عن الله تعالى، وقد مضى كلام عنها وما حوته في الفصل السابق.

وهذه الطبقة بنت خوفها على معرفتها بالله تعالى (وكل مـــن عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية)[١].

فمن عرف الله تعالى بصفاته وكماله وجلاله كان خوفه منـــه سبحانه أشد، فهو ينظر إلى الله وقدره في نفسه وملكوته، فـــيعظم منه الخوف حينئذ.

وحقيقة خوف هذه الطبقة كشف عنها الإمام الغزالي – رضي الله عنه– في: (إحياء علوم الدين) حيث قال [٢]: أن يغلب علـــى قلوبهم الخوف مما ليس مكروها لذاته بل لغيره.

---

(١) (إحياء علوم الدين) (٤/١٩٥).
(٢) ص (٤/١٩٤).

وضرب على ذلك أمثلة ننتخب منها:

الأول: خوف الميل عن الاستقامة، فإن من خذلان الله تعــالى لعبده أن يميل بقلبه عن طريق الاستقامة إلى ضدها، ولذا كان مــن دعاء سيدنا ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» وهــو سيد الخائفين ﷺ.

وعلى هذا يحمل خوفهم عند الموت من أن يموتوا علــى غــير السنة والإسلام، فلم تكن تغلب عليهم المخافة من شــيء كغلبــة المخافة من هذه.

الثاني: الخوف من إيكال الله العبد إلى حسناته التي تعزز بهــا واتكل عليها، وهي ليست بشيء عند رحمة الله وفضله، فإذا جعل الأمر إلى الحسنات، وبها المقايضة فيا خيبة تلحق المــرء لا يدركــه معها خير إلا بفضل الله ومنته.

فإذا اعتز المرء بعمله، وأعجب بطاعته خشي عليه أن يكــون مُوكلا إلى ذلك، وبها يلقى جزاءه، والأمر يرجــع إلى فضــل الله ورحمته بالعبد.

الثالث: الخوف من خاتمة السوء، وهذه التي أخذت من قلوب الأبرار المأخذ الخطير، فأقضّت مضاجعهم، وطردتهم من فرشهم.

قال الإمام سهل بن عبد الله: خوف الصديقين مــن ســوء الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة، وهم الذين وصــفهم الله إذ قال: ﴿**وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾[المؤمنون: ٦٠].

قال رسول الله ﷺ: «**العبد المؤمن بين مخافتين، بين أجل قـــد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري مـــا الله قاض فيه، فو الذي نفسي بيده ما بعد الموت مســـتعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار**»[رواه البيهقي].

وسوء الخاتمة على رتبتين [(١)].

الأولى: أن يغلب على القلب عند الموت وسكراته الشـــك أو الجحود، فتقبض الروح على ذلك، وهذا أعظم المرتبتين، خـــتم الله لنا بخير.

الثانية: أن يغلب على القلب عند الموت حب أمر من أمـــور الدنيا، وشهوة من شهواتها، فتقبض روح العبد على تلك الحـــال، فيكون مصروفاً عن الله تعالى، وعن الإقبال عليه، والله المستعان.

إن سوء الخاتمة في تلك الرتبتين أسباب، أجملها الإمام الغزالي – يرحمه الله– في: (إحياء علوم الدين)، حيث قال [(٢)].

فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها. أهـــ.

فذكر أسباب الخاتمة السيئة الأولى، وهما سببان:

الأولى: البدعة، والمراد بها: أن يعتقـــد الرجـــل في ذات الله،

---

(١) انظر: (إحياء علوم الدين) (٤/٢١٣).
(٢) ص (٤/٢١٦).

وأفعاله، شيئاً على خلاف ما هو به فهو في هذا الخطـــر، والزهـــد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر، بل لا ينجي منه إلا الاعتقـــاد الحق.

الثاني: ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا علـــى القلب، ومهما ضعف الإيمان، ضعف حب الله تعالى، وقوى حـــب الدنيا، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد حب الله ضعفاً، وحـــب الدنيا قوة، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها خطرة انقلاب الحب الضعيف لله تعالى إلى بغض، فقد خـــتم لـــه بالسوء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وأما أسباب المرتبة الثانية من الخاتمتين، فهما:

الأول: كثرة المعاصي، وإن قوى الإيمان.

الثاني: ضعف الإيمان، وإن قلت المعاصي.

(وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مخوف فيها، فاشـــتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى، وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك، وعن الفكر فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك، فإن ذلـــك يؤثر في قلبك، ويصرف إليه فكرك وخواطرك)(١).

الطبقة الثانية: من يخاف معصيته وجنايته (٢).

وحقيقة خوفهم من أشياء لذاتها، لا لغيرها مما تفضـــي إليـــه،

(١) (إحياء علوم الدين) (٤/٢٢٠- ٢٢١).
(٢) انظر: (إحياء علوم الدين) (٤/١٩٥- ١٩٦).

كخوفهم من سكرات الموت ونحوها.

وهو خوف من لم يكتمل معرفته بالله تعالى، و لم تنفتح بصيرته به.

محال الخوف من الله تعالى

إن تخلق العبد بالخوف من الله تعالى يظهر عليه في حياته كلها، قولاً وفعلاً، وفي ذلك يقول العلماء: المؤمن هو الـــذي يخـــاف الله تعالى بجميع جوارحه.

فالخوف إذ هو عمل من أعمال القلب إلا أن لـــه ظهـــوراً في جوارح العبد، وذلك في سبعة أشياء:

الأول: اللسان، فيمنعه من الكـــذب، والغيبـــة، والنميمـــة، والبهتان، وكلام الفضول، ويجعله مشغولاً بذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن ومذاكرة العلم.

الثاني: القلب، فيخرج منه: العـــداوة، والبـــهتان، وحســـد الإخوان.

الثالث: النظر، فلا ينظر إلى الحرام.

الرابع: البطن، فلا يدخل فيه حرام.

الخامس: اليد، فلا تمد إلى حرام، وإنما إلى الطاعات.

السادس: القدم، فلا يُمش بها إلى معاص وذنـــوب، بـــل إلى طاعات ومراض لله تعالى.

السابع: الطاعة، فتجعل خالصة لوجه الله، ويخاف من الريـــاء

والنفاق [١].

فرعاية العبد الخوف من الله تعالى، وإنماؤه في هذه المحال كافٍ في تحقيقه لرتبة الخوف على وجه تكون به مراقبة الله، ورعاية حقه في السر والعلن، حيث إن الخوف عمل قلبي ولابـــد لوجـــوده في القلب من أثر على الجوارح، ورعاية ذلك مهم جداً، فافهمه.

وهذا هو الخوف المطلوب، بل هو المقصـــود مـــن الخـــوف، وللعلماء في ذلك مقالات رفيعات توحي بهذا المعنى، يقول الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير).

قال الإمام الغزالي – يرحمه الله– [٢]: ذاكرا الخوف المطلوب: إنما الخوف – أي المحمود- هو الذي يحث على العمل، ويكـــدر جميع الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا، ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور.أهـــ.

وهذه ثمار للخوف عملية، وليست مجرد معلوم يعلم ويعرف.

وإلى هنا ختام الكلام، والصلاة والسلام على خـــير الأنـــام، والحمد للملك العلام.

كتبه

عبد الله بن سليمان العتيق

رجب الفرد / ١٤٢٥هـــ

---

(١) انظر: (مكاشفة القلوب) (ص١١- ١٢).

(٢) انظر: (إحياء علوم الدين) ص (٤/٢٠٤).

الرياض: ١١٥٢٧
ص .ب – ٦٨٢٩٨

الفهرس